200343 ـ هل يدل قوله تعالى : (لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ) على أن للقرآن يدين ؟

السؤال

قال الله جل جلاله : (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) . فهل معنى ذلك أن للقرآن يدين حقيقيتين بكيفية مجهولة ؟!

الإجابة المفصلة

الحمد لله.

أولا :

نزل القرآن بلسان عربي مبين ، وفيه من تفانين البلاغة ، وبراعة الأساليب ، وطرائق العرب في كلامها : ما يوجب فهمه وفق ذلك ، فيتعرف القارئ والمتأول : طرائق العرب في كلامها ، ومعاني مفردات ، ودلالات أساليبها ، قبل أن يقضي على في معنى القرآن بشيء من ذلك .

قال سيبويه رحمه الله :

" العباد إنَّما كُلّموا بكلامهم ، وجاء القرآنُ على لغتهم وعلى ما يَعنون" .

انتهى من " الكتاب " (1/331) .

وقد عقد شيخ المفسرين ، ابن جرير الطبري ، في مقدمة تفسيره ، فصلا مهما في تقرير ذلك المعنى ، عنونه بقوله :

" القولُ في البيانِ عن اتفاق معاني آي القرآن ، ومعاني منطِق مَنْ نزل بلسانه القرآن من وَجْه البيان ـ والدّلالة على أن ذلك من الله تعالى ذكره هو الحكمة البالغة ـ مع الإبانةِ عن فضْل المعنَى الذي به بَايَن القرآنُ سائرَ الكلام .." .

ينظر : "تفسير الطبري" (1/8) وما بعدها .

وقال الشاطبي رحمه الله :

" الْقُرْآنَ عَرَبِيٌّ ، وَالسُّنَّةُ عَرَبِيَّةٌ ، لَا بِمَعْنَى أَنَّ الْقُرْآنَ يَشْتَمِلُ عَلَى أَلْفَاظٍ أَعْجَمِيَّةٍ فِي الْأَصْلِ أَوْ لَا يَشْتَمِلُ ؛ لِأَنَّ هَذَا مِنْ عِلْمِ النَّحْوِ وَاللُّغَةِ ، بَلْ بِمَعْنَى أَنَّهُ فِي أَلْفَاظِهِ وَمَعَانِيهِ وَأَسَالِيبِهِ عَرَبِيٌّ ، بِحَيْثُ إِذَا حُقِّقَ هَذَا التَّحْقِيقَ : سُلِكَ بِهِ فِي الِاسْتِنْبَاطِ مِنْهُ وَالِاسْتِدْلَالِ بِهِ ، مَسْلَكَ كَلَامِ الْعَرَبِ فِي تَقْرِيرِ مَعَانِيهَا ، وَمَنَازِعِهَا فِي أنواع مخاطباتها خاصة ؛ فإن كثيرا مِنَ النَّاسِ يَأْخُذُونَ أَدِلَّةَ الْقُرْآنِ بِحَسَبِ مَا يُعْطِيهِ الْعَقْلُ فِيهَا ، لَا بِحَسَبِ مَا يُفهم مِنْ طَرِيقِ الْوَضْعِ ، وَفِي ذَلِكَ فَسَادٌ كَبِيرٌ وَخُرُوجٌ عَنْ مَقْصُودِ الشَّارِعِ " انتهى من " الموافقات " (1/39) .

ثانيا :

قول الله تعالى في وصف كتابه العزيز : (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) فصلت/ 41-42 .

قال الشيخ السعدي رحمه الله :

" (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ) أي : يجحدون القرآن الكريم المذكر للعباد جميع مصالحهم الدينية والدنيوية والأخروية ، المُعلي لقدر من اتبعه ، (لَمَّا جَاءَهُم) نعمة من ربهم على يد أفضل الخلق وأكملهم . (و) الحال (إِنَّهُ لَكِتَابٌ) جامع لأوصاف الكمال (عَزِيزٌ) أي : منيع من كل من أراده بتحريف أو سوء ، ولهذا قال : (لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ) أي : لا يقربه شيطان من شياطين الإنس والجن ، لا بسرقة ، ولا بإدخال ما ليس منه به ، ولا بزيادة ولا نقص ، فهو محفوظ في تنزيله ، محفوظة ألفاظه ومعانيه ، قد تكفل من أنزله بحفظه كما قال تعالى : (إِنَّا نَحْنُ نزلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)" انتهى من " تفسير السعدي " (750) .

ولا مدخل لهذه الآية في وصف القرآن ، في أن يوصف بأنه له يدٌ ، أو ليس له يدٌ ، أو نحو ذلك ، فإن الوصف باليد ، والرجل ، ونحو ذلك : إنما هي من أوصاف الذوات ، والقرآن : كلام الله ، وهو صفة من صفات الله ، والصفة لا توصف بأن لها يدًا ، أو ليس لها يدٌ ، فهذا فهم أجنبي من كلام العرب ، لا يتطرق إلى لغاتها بوجه ؛ وهذا مثل قوله صلى الله عليه وسلم ، في وصف قرب الساعة : (.. بَيْنَ يَدَيْ السَّاعَةِ) ، في أحاديث كثيرة ، ومتنوعة ؛ فهل يعني ذلك : أن للساعة ، وهي القيامة : يدًا ، أو رجلاً ، أو ليس لها يدٌ ، أو رجلٌ ؟!

قال أبو المظفر السمعاني ، رحمه الله :

"وَقَوله : (من بَين يَدَيْهِ) أَي : قبل النُّزُول ، فَإِن الرُّسُل بشرت بِالْقُرْآنِ ، فَلَا يَأْتِيهِ مَا يدحضه ويبطله (وَلَا من خَلفه) أَي : بعد النُّزُول ، وَمَعْنَاهُ : أَنه لَا يَأْتِيهِ كتاب ينسخه " انتهى من " تفسير السمعاني" (5/56) .

وقال ابن عطية رحمه الله :

"ما تقدم الشيء : فهو بين يديه ، وما تأخر عنه : فهو خلفه " .

انتهى من " المحرر الوجيز" (2/542) .

وقال أيضا :

" وقوله : (مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ) ، معناه : ليس فيما تقدمه من الكتب ما يبطل شيئا منه. وقوله : (وَلا مِنْ خَلْفِهِ) ، أي : ليس يأتي بعده من نظر ناظر ، وفكرة عاقل : ما يُبطل أشياء منه .

والمراد باللفظ على الجملة : لا يأتيه الباطل من جهة من الجهات ".

انتهى من " المحرر الوجيز " (5/19) .

وينظر أيضا : " تفسير الطبري " (21/ 480) ، " تفسير ابن عطية " (1/161) ، " البحر المحيط " ، لأبي حيان (9/311) ، " تفسير ابن كثير " (7/183) ، " غريب القرآن " لابن قتيبة (389) ، " لسان العرب " لابن منظور (5/375، 15/424) دار صادر .

والله تعالى أعلم .